موجز التاريخ الحضاري بين مصر والغرب الإسلامي

من الفتح الإسلامي 21هـ/642 م- نهاية العصر المملوكي 923هـ/1517م

اعداد
د. خالد عبد الكريم أبوشنب
دكتوراة في الآثار والحضارة الإسلامية
من جامعة أرجيس- بتركيا

ترجع العلاقات بين مصر والغرب الإسلامي إلى البدايات الأولى للفتح الإسلامي حيث خرجت من مصر الجيوش متتابعة لفتح الغرب الإسلامي حتى تم فتح الأندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد سنة 92هـ[1]، ومن هذه العلاقات نجد أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد أرسل ألفًا من الموالي الأقباط المسلمين إلى دار صناعة السفن في تونس[2] ، ومن حينها لم تتوقف العلاقات الحضارية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بين مصر والغرب الإسلامي حتى خلال عصر الأغالبة . وفي سنة 296هـ/909م قامت الخلافة العبيدية الإسماعيلية الفاطمية الباطينية الشيعية وأسقطت دولة الأغالبة في تونس ثم أمتد سلطانها إلى الشمال الإفريقي كله وجزر البحر المتوسط وفي تلك الآونة توفي حاكم مصر كافور الإخشيدي سنة 357هـ آخر والي من قبل الخلافة العباسية وربيب الإخشيديين والذي بموته انفرط عقد الدولة الإخشيدية بمصر[3]، فتقدمت إليها الجيوش العبيدية الشيعية الفاطمية بقيادة جوهر الصقلي (الصقلبي نسبة إلى صقلابة وهي بلاد البوشناق أي البوسنة والهرسك حاليًا) مع مائة ألف جندي مغربي وضمها لحكم العبيدية الفاطميين الشيعية سنة358هـ وأنشأ حصن ُمدينة القاهرة لتكون عاصمة إدارية للعبيديين الفاطميين وحاشيتهم وجندهم وأعوانهم؛ ليفصلهم عن المصريين السنة ذوي الغالبية في البلاد؛ للحفاظ على العقائد الإسماعيلية الباطنية الإلحادية من الإندثار. ولقد أنشأ القاهرة على شكل مربع يشبه تصميم عاصمتهم المنصورية في تونس، وأطلق عليها اسم المنصورية. وأطلق على أبوابها أسماء أبواب المنصورية في تونس. وأنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً للدعوة الشيعية الإسماعيلية. وأختط جوهر قصر الخليفة العبيدي الفاطمي القصر الشرقي الكبير، ولما قدم المعز مع أهله من تونس غير اسم المدينة إلى القاهرة سنة 362هـ لتكون قاهرة الشيعية الرافضة التي تقهر بغداد السنية عاصمة خلافة بني العباس. ولكن من لطائف الله في قدره أنها أصبحت القاهرة السنية قاهرة جحافل الصليبيين والمغول الوثنيين. وأهتم العبيديين بزخرفة القاهرة وقصورها؛ **حتى قيل من بغداد الرشيد إلى قاهرة المعز**. ولقد آتت مع المعز هجرة مغربية أخرى غير الهجرة العسكرية السابقة مع جوهر؛ وهذه الهجرة ليست للحج أوللتجارة

---

[1]- علي الصلابي، صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الأفريقي، ط1، نشر دار البيارق، الأردن، عمان، 1998، ص180،181.

[2]- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط2، نشر الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2004، ص56،70.

[3]- محمود شاكر، موسوعة التاريخ الإسلامي، 9 أجزاء، ط6، نشر المكتب الإسلامي، لبنان ، بيروت، 2000م،ج6،ص159،160.

وللعودة مرة أخرى إلى المغرب؛ بل للإستيطان وهي هجرة قبائل عسكر مصمودة البربرية(4)، ولقد اتضحت آثار هذه الهجرة الفنية والمعمارية التي كانت سائدة في بلاد المغرب على عمائر مصر مثل إطلاق عدد من المسميات التونسية على بعض القصور والمناطق بمصر؛ فأطلقوا أسم "رأس الطابية" على المنطقة الموجود فيها قبر "بدر الجمالي الأرميني" عند باب النصر؛ وهي المنطقة التي كانت تؤدي إلى بساتين العبيديين الفاطميين؛ أسوة "برأس الطابية" بتونس. والتي كانت تؤدي إلى بساتينهم هناك. كما أطلقوا على أحد قصورهم بجزيرة الروضة اسم "المختار"؛ أسوة بقصرهم "المختار" بتونس وغيرها الكثير[5] ، ثم ازدادت أحوال مصر سوءًا في عهد ثاني خلفاء الباطنيين الحاكم العبيدي الفاطمي العزيز بالله. والعراك الذي نشب بينه وبين الخلافة الأموية في الأندلس بقيادة الخليفة الأموي بالغرب الإسلامي عبدالرحمن الناصر وأنصاره من مسلمي ليبيا على حدود مصر. ثم أزداد الأمر سوءًا أثناء الشدة المستنصرية والتي استمرت سبع سنوات عجاف. أكل فيها الناس القطط والكلاب والأطفال نتيجة انقطاع النيل. وقل سكان مصر نتيجة غلبة الموت لأكثر على أكثر نصف السكان. وتزامن ذلك مع قيام دولة المرابطين سنة 448هـ في المغرب والأندلس. والتي عادت الخلافة العبيدية الفاطمية الشيعية في مصر وكفرتها وناصرت الخلافة العباسية السنية في بغداد؛ إلا أن هذا لم يمنع سكان الدولتين المرابطية والعبيدية الفاطمية من الإلتقاء والتجارة وتبادل التأثيرات الفنية والمعمارية. وفي هذه الأثناء أحتل الصليبيين القدس سنة 492هـ/ 1099م؛ وذلك بعد دعوة بطرق الفاتيكان أوربان الثاني لنصارى أوروبا لغزو المشرق العربي الإسلامي بالاتفاق مع الخليفة المستنصر العبيدي الشيعي الفاطمي؛ والذي دعى الغرب الصليبي للاحتلال الشام ؛مقابل القضاء على سلاجقة الشام السنة أعدائه. وعدم المساس بالقدس كي لا يتهم خليفة الباطنيين الشيعي الفاطمي بالخيانة. إلا أن الصليبيين غدروا به ولما وصلوا للشام احتلوا القدس. وكان ذلك قبيل وفاته؛ وتزامن ذلك مع قيام ثورة الموحدين التومرتية المسلحة في المغرب؛ والتي أسقطت دولة المرابطين على يد خليفتهم عبد المؤمن بن علي سنة 541هـ [6]، وفي المشرق ظهر آل زنكي الأتابكة التركمان الأفشار المستعربيين ووزرائهم من آل أيوب الأكراد ذوي الأصول العربية. والذين تمكنوا على يد صلاح الدين الأيوبي من إسقاط الدولة العبيدية الشيعية الفاطمية سنة 567هـ وتأسيس الدولة الأيوبية التي أستردت القدس من يد الصليبيين عام 583هـ/1187م [7] ،

4- أحمد عبد الرزاق(وآخرون)، تاريخ مصر الإسلامية، ط1، (د.ن)، القاهرة، (د.ت)، ص147-151.

5- حسن عبد الوهاب، الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة، ط1، نشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.م)،1965،ص6.

6- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت845هـ/1442م، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان،ط2،نشر المركز الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، 1987،ج2،ص237.

7- علي الصلابي، عوامل نهوض وأسباب سقوط الدولة العثمانية، ط1، نشر مكتبة الصحابة، الإمارات، الشارقة،2001، ص229-235.

ورغم الخلاف بين الدولتين الأيوبية والموحدية [8]بسـبب توسـع الأيوبيين في الشـمال الأفريقي؛ حيث ضـموا ليبيا وأجزاء من تونس؛ ولرفض الأيوبين البيعة لخليفة دولة الموحدين أبو يعقوب يوسـف؛ وتمسـكهم بشـرعية الخليفة العباسـي السـني في بغداد؛ إلا أن هذا لم يمنع تعاون شـعوبهما في السـراء والضراء؛ حتى أن ابن جبير ذكر أن كثيرًا من أهل اليسار في الشام ومصر كانوا ينفقون الأموال الطائلة من أجل فك الأسـرى المغاربة من يد الصـليبيين [9]، ولقد اكتسـبت القاهرة في العصـر الأيوبي الشـهرة العالمية؛ وذلك بعد تحولها من عاصمة إدارية إلى مدينة كبرى وأُسْكِّنَ فيها المصريين لأول مرة منذ أكثر من قرنيين ونصـف منع المصـريين من السـكنىَّ فيها على يد الرافضـة العبيدية الفاطمية؛ وكذلك لكون القاهرة عاصـمة البلاد التي ضـمت عواصـم مصـر الأربعة الفسـطاط والعسـكر والقطائع وحصـن مُدينة القاهرة الشيعي في العصـر الأيوبية فتحولت القاهرة من مدينة ملكية إلى مدينة عسـكرية شـعبية؛ ولوجود التجارة الدولية بها؛ حيث كانت تنقل منها إلى أوربا عبر نهر النيل إلى البحر المتوسـط أو بلاد المغرب والأندلس حسب ما أكده ابن سعيد الأندلسي. وبفضـل تشـجيع صـلاح الدين الأيوبي للقاضـي الفاضـل عاد إلى مصر علماء الحديث من جديد بعد زوال الخلافة العبيدية الشيعية وبخاصة أن السلطان صلاح الدين أعتمد على علماء الشافعية والحنابلة في القضاء على عقائد الباطنية الشيعية، كذلك هاجر كثير من علماء الحديث المالكية إلى مصـر من قرطبة وأشـبيلية في الأندلس [10]، وعقب موقعة "العقاب" المشـئومة؛ وانفراط عقد الدولة الموحدية أتت هجرات أندلسـية مغربية كبيرة إلى مصـر فراراً من نصـارى الأندلس؛ أنتجوا لنا زخارف مغربية أندلسية في العمائر الأيوبية مع بداية القرن الـ7هـ اتضحت آثارها في قبة الإمام الشافعي، وفي دار الحديث الكاملية 622هـ/1225م، وفي الجزء المربع بالمئذنة الأيوبية بالمشهد الحسيني 634هـ/1237م ، وفي مئذنة الصالح نجم الدين أيوب 641هـ وغيرها من العمائر الأيوبية[11] ، وبموت الصالح نجم الدين أيوب أثناء الحملة الصليبية السابعة 647هـ وباعتلاء زوجته السلطانة شجر الدر العرش يبدأ العصر المملوكي[12]، والذي ينقسم إلى عصرين؛ الأول البحري (784-648هـ) والثاني الجركسي (923-792هـ)؛ والذي ينتهي بشنق طومان باي على باب زويلة على يد العثمانيين [13]. إلا أن هذا العصر شهد عدة أحداث مدوية في المغرب والأندلس؛ حيث سقطت الخلافة الموحدية 667هـ؛ وقام مكانها ثلاث دويلات بنو حفص في تونس، وبني مرين في المغرب الأوسط والأقصى، وبنى الأحمر في

8- السيد عبد العزيز، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، ط1، نشر دار الغرب الإسلامي، لبنان ، بيروت، 1992، ص608،615،620.

9- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، ت930هـ/1523م، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، 5أجزاء، ط3، نشر الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1984، ج3، ص244-245.

10- المقريزي، الخطط، ج2، عصر الدولة الأيوبية.

11 المقريزي، الخطط، ج2، عصر الدولة الأيوبية.

12 المقريزي، الخطط، ج2، عصر الدولة الأيوبية.

13 ابن إياس، بدائع الزهور، ج4، أحداث سنة 923هـ.

غرناطة بالأندلس؛ مما أدى إلى تدافع الهجرات الكبيرة من أهالي المغرب والأندلس إلى مصـــر خلال العصر المملوكي. ومن هؤلاء أبا العباس المرسي توفي 686هـــ من مدينة مُرسية الأندلسية والذي هاجر إلى الإسـكندرية. وقبره مازال معروف فيها للآن [14] والإمام الشـاطبي وأبي بكر الطرطوشـي وغيرهم الكثير... ورغم علاقات المد والجزر بين الدولة المملوكية وإســبانيا النصـــرانية في عهد الســـلطان قايتباي[15]؛ إلا أنه أتت هجرات أندلســـية مغربية في عهده، تجلت آثار هذه الهجرات المتتالية في فنون وعمائر الدولة المملوكية في الحنيات المقوسة بقبة الغوري، والنوافذ المزدوجة ذات العقود المتجاورة في قبة فاطمة خاتون 682هــ، والقبة المضلعة وفي مجموعة سلار وسنجر الجاولي 703هـ[16] ، ومنها إلى باب المئذنة وغيرها الكثير. لقد حاول السلطان قايتبياي انقاذ الأندلس وأتفق مع السلطان العثماني بايزيد الثاني على أن يرســل الســلطان بايزيد الثاني حملة عســكرية بحرية إلى الأندلس؛ في نفس الوقت الذي يرسل السلطان قايتباي حملة عسكرية برية للأندلس عبر بلاد المغرب. وتوعد السلطان قايتباي المملوكي بابا الفاتيكان إذا لم يرفع الظلم عن مسلمي الأندلس فإنها الحرب وأن أهل الذمة في جميع أنحاء السلطنة المملوكية سـيتعرضـون لمثل ما يتعرض له مسلمي الأندلس. غير أن بطرق الفاتيكان رد على السلطان قايتباي قائلاً: " لم يروَ أن دولة تحكم بشـــريعة الإســـلام أنتهكت رعاياها المعاهدين من أهل الذمة بدون سـبب". غير أن الحملة المملوكية العسكرية البرية لإنقاذ الأندلس توقفت نتيجة لإغتيال السلطان قايتباي سنة 901هـ؛ ومثلها الحملة البحرية العسكرية العثمانية توقفت كذلك نظرًا لخلع السلطان بايزيد الثاني عن العرش وتنازله عنه لولده الأصغر ياوز سليم الأول (سليم القاطع الأول). وإن استأنفت الهجمات العثمانية فيما بعد لإنقاذ مسلمي الأندلس بخاصة في عهد السلطان الخليفة سليمان القانوني.[17]

وهكذا يتبين لنا الوحدة الموضوعية والحضارية بين التاريخ الإسلامي الحضاري في مصر وبلاد المغرب العربي الإسـلامي الكبير والأندلس؛ وأن العلاقات بين مصـر والغرب الإسـلامي متأصـلة؛ منذ الفتح الإســـلامي وحتى نهاية العصـــر المملوكي على كل المســـتويات الدينية والسـياسـية والإجتماعية والعمرانية والفنية والمعمارية. والغرض من هذا التاريخ الموجز رسـم صـورة ذهنية متكاملة في الذهن لدى الباحثين وطلاب الآثار الإســلامية عن العلاقات بين مصـــر والغرب الإســـلامي خلال هذه الفترات التاريخية. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

[14] السيد عبد العزيز، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، ط1، نشر دار الغرب الإسلامي، لبنان ، بيروت، 1992، ص608،615،620.
[15] محمد بن محسن بن عقيل الموسى، إستجابات إسلامية لإستراخات أندلسية.
[16] ـ السيد عبد العزيز سالم،المرجع السابق،ص620
[17] محمد بن محسن بن عقيل الموسى، إستجابات إسلامية لإستراخات أندلسية.